رابعاً: إضاءات للثبات على الطريق

١- مِن عوائقِ طلبِ العلمِ:

- (طلبُ العلمِ لغيرِ وجهِ اللهِ تعالَى.
- تركُ العملِ.
- الاعتمادُ على الكتبِ دونَ العلماءِ.
- أخذُ العلمِ عن الأصاغرِ.
- عدمُ التدرجِ في العلمِ.
- الغرورُ والعُجْبُ والكِبرُ.
- استعجالُ الثمرةِ.
- دنوُّ الهمةِ.
- التَّسْويفُ.
- التَّمَنِّي)[1].

٢- احذرْ هذه الآفاتِ:

- (**حُلم اليقظةِ**، ومنه بأن تدَّعي العلمَ لِمَا لَمْ تعلَمْ، أو إتقانَ ما لَمْ تُتْقِنْ، فإنْ فعلتَ فهو حجابٌ كثيفٌ عن العلمِ.

- **ما يتسلَّى به المفْلِسون مِن العلمِ**، يُراجِعُ مسألةً أو مَسْـــألتين، فإذا كان في مجلسٍ فيه مَن يُشارُ إليه، أثارَ البحثَ فيهما، ليظهرَ علمُـــه!

---

(١) (عوائق الطلب، لعبد السلام برجس) (ص٩- ٧٤).

وكمْ في هذا مِن سوءةٍ، أقلُّها أن يعلمَ أنَّ الناسَ يعلمون حقيقتَه.

– **إذا ظفرْتَ بوهمٍ لعالمٍ، فلا تفرَحْ به للحطِّ منه**، ولكن افرَحْ به لتصحيحِ المسألةِ فقط، فإنَّ المنصفَ يكادُ يجزمُ بأنَّه ما مِن إمامٍ إلا وله أغلاطٌ وأوهامٌ، لا سيَّما المكثرين منهم.

وما يُشغبُ بهذا ويفرحُ به للتنقصِ إلا متعالمٌ يريدُ أن يطبَّ زُكاماً فيُحدثَ به جُذاماً)[١].

قال الصَّنعانيُّ: (وليس أحدٌ مِن أفرادِ العلماءِ إلا وله نادرةٌ ينبغي أن تُغمرَ في جَنْبِ فضلِه وتُجْتَنبَ)[٢].

وقال أبو هلالٍ العسكريُّ: (ولا يضعُ مِن العالمِ الذي برَعَ في علمِه زلةٌ، إن كان على سبيلِ السهوِ والإغفالِ؛ فإنَّه لم يَعْرُ مِن الخطأِ إلا مَنْ عصَمَ اللهُ جلَّ ذكرُه. وقد قالَتِ الحكماءُ: الفاضلُ مَن عُدَّتْ سقطاتُه، وليتَنا أدْرَكْنا بعضَ صوابِهم، أو كنَّا ممن يميِّزُ خطأَهم)[٣].

– (**لا تجعلْ قلبَك كالسفنجةِ** تتلقَّى ما يرِدُ عليها، فاجْتَنبْ إثارةَ الشُّبهِ وإيرادَها على نفسِك أو غيرِك، فالشُّبَهُ خطَّافةٌ، والقلوبُ ضعيفةٌ، وأكثرُ مَن يُلْقِيها حمالةُ الحطبِ – المبتدعةُ – فتَوقَّهم)[٤].

---

(١) (حلية طالب العلم، لبكر أبو زيد، بتصرف) (ص٥٧) .

(٢) (سبل السلام، للصنعاني) (١٦٨/١).

(٣) (شرح ما يقع فيه التصحيف، للعسكري) (ص٦).

(٤) (حلية طالب العلم، لبكر أبو زيد، بتصرف) (ص٥٩).

- لا تكنْ خُنفشاريًّا

قال الشيخُ بكر أبو زيدٍ: (الخنفشاريُّ المتعالِمُ: مازال الناسُ يُبْتَلَوْن بهذا الطِّرازِ النكدِ مِن الخُنْفشاريينَ، فقد قرأتُ لدَى نقلةِ السِّيَرِ، ومُقَيِّدي الأخبارِ والأثرِ، مثلاً منها في الغابرين، فعلى جادَّةِ المثالِ:

مُفتي الخنفشارِ: في كتبِ المحاضراتِ أنَّ رجلاً كان يُفتي كلَّ سائلٍ دونَ توقُّفٍ، فلحظَ أقرانُه ذلك منه، فأجْمَعوا أمرَهم لامتحانه، بنحتِ كلمةٍ ليسَ لها أصلٌ هي الخنفشارُ فسألوه عنها، فأجابَ علَى البديهةِ: بأنَّه نبتٌ طيبُ الرائحةِ ينبتُ بأطرافِ اليمنِ، إذا أكلَتْه الإبلُ عقَد لبنَها، قال شاعرُهم اليَمَاني:

لقدْ عقَدَتْ محبَّتُكم فُؤادِي ... كمَا عقَدَ الحَلِيبَ الخُنفشارُ

وهذا الشيخُ محمدُ بدرُ الدينِ الحلبيُّ رحِمه اللهُ تعالى سألَ أزهريًّا عن أصيلالاً في بيتِ النابغةِ:

وَقَفْتُ فيها أُصَيْلالاً أُسائِلُها ... عَيَّتْ جَواباً وما بالرَّبْعِ مِنْ أحَدِ

فقال الأزهريُّ: أَصِيل بفتحِ الهمزةِ، وكسرِ الصادِ، ولا نافيةٌ للفعلِ بعدَها. فقُلْنا: لا، بل (أُصيلالاً) كلُّها كلمةٌ واحدةٌ، والفعلُ بعدَها مثبتٌ. فضحِك، وقال: يقولُ اللهُ ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤٢] وتقولون أصيلالاً)! [1].

---

(١) (التعالم، لبكر أبو زيد، بتصرف) (ص١٥،١٩).

- تجنَّبْ تتبعَ الرخصِ والأقوالِ الشاذةِ

قال سليمانُ التَّيْميُّ: (إن أخذْتَ برخصةِ كلِّ عالمٍ اجتمعَ فيك الشرُّ كلُّه)[١].

وقال الشيخُ بكر: (ولَّما كان في الشذوذِ والترخُّصِ، منابذةٌ للشرعِ، صانَ السَّالفون دينَهم وعِلمَهم عن ذلك، وقد يقعُ لدَى الواحدِ منهم، أو في المذهب: المسألةُ أو المسألتان عن عارضٍ مِن الاستدلالِ انْقدحَ بذهنه لا للتشهِّي لكن ما يلبثُ أن يَؤُوبَ، أو يقفَ القولُ عندَ قائلِه، فيُهجرَ ذلكم الرأيُ، ويسيرُ أهلُ العلمِ على الجادَّةِ، ولله الحمدُ والمنةُ)[٢].

وأوْصَى خالدُ بنُ يحيَى بنِ بَرْمكَ ابنَه، فقال له: (يا بُنيَّ، خذْ مِن كلِّ علمٍ بحظٍّ؛ فإنَّك إن لم تفعلْ جهِلْتَ، وإنْ جهِلْتَ شيئاً مِن العلمِ عاديتَه، وعزيزٌ عليَّ أنْ تعاديَ شيئاً مِنَ العِلمِ)[٣].

٣- كنْ عاليَ الهمةِ:

قال ابنُ الجوزيِّ، متحدِّثاً عن علوِّ الهمةِ:

(تأمَّلْتُ عجباً، وهو أنَّ كلَّ شيءٍ نفيسٍ خطيرٍ يطولُ طريقُه، ويكثرُ التعبُ في تحصيلِه، فإنَّ العلمَ لما كان أشرفَ الأشياءِ، لم يحصلْ إلا بالتعبِ، والسهرِ، والتكرارِ، وهجرِ اللذَّاتِ، والراحةِ، حتَّى قال بعضُ

---

(١) (جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر) (٢/٩٢٧).

(٢) (التعالم، لبكر أبو زيد) (ص٩٤).

(٣) (جامع بيان العلم، لابن عبد البر) (١/٥٢٣).

الفقهاءِ: بقِيتُ سنينَ أشْتَهي الهريسةَ لا أقدرُ؛ لأنَّ وقتَ بيعِها وقتُ سماعِ الدرسِ... ولولا ما عانَى يوسفُ عليه السلامُ، ما قِيلَ له: (أيُّها الصِّدِّيقُ) ولقد تأملتُ نيلَ الدُّرِّ مِنَ البحرِ، فرأيتُه بعدَ معاناةِ الشدائدِ، ومَنْ تفكَّر فيما ذكرتُه مَثلاً؛ بانَتْ له أمثالٌ)[1].

وقال أيضاً محدِّثاً ولدَه عن نشأتِه:

(وإنِّي لأذكرُ لك بعضَ أحوالي، فإنِّي أذكرُ نفسي ولي همةٌ عاليةٌ، ولي نحوٌ مِن ستِّ سنينَ، وأنا قرينُ الصبيانِ الكبارِ، فما أذكرُ أنِّي لعبتُ في طريقٍ مع صبيٍّ، ولا ضحِكتُ ضحِكاً خارجاً، حتَّى إنِّي كنتُ ولي سبعُ سنينَ أو نحوُها، أحضرُ رحبةَ الجامعِ، أطلبُ المحدِّثَ، فيتحدثُ بالسَّمرِ الطويلِ فأحفظُ، فأرجعُ إلى البيتِ، فأكتبُه، ولقد كانَ الصبيانُ يَترِلون دِجْلةَ، ويَتفرَّجون على الجسرِ، وأنا في زمنِ الصغرِ آخذُ جزءاً، وأقعدُ حُجْزةً مِن النَّاسِ، إلى جانبِ الرَّقةِ، فأتشاغلُ بالعلمِ، وكنتُ أصبحُ وليسَ لي ما آكلُ، وأُمْسِي وليسَ لي شيءٌ)[2].

وقال أيضاً:

(تأمَّلتُ أحوالَ الناسِ في حالةِ علوِّ شأنِهم، فرأيتُ أكثرَ الخلقِ تبينُ خسارتُهم حينئذٍ؛ فمِنهم مَن بالغَ في المعاصي مِن الشَّبابِ، ومِنهم مَن فرَّط في اكتسابِ العلمِ، ومِنهم مَن أكثرَ مِن الاستمتاعِ باللذَّاتِ، فكلُّهم نادمٌ في حالةِ الكبرِ، حينَ فواتِ الاستدراكِ لذُنوبٍ سلَفتْ، أو قُوًى

(١) (صيد الخاطر، لابن الجوزي، بتصرف) (ص٢٧٠،٢٦٩).

(٢) (لفتة الكبد في نصيحة الولد، لابن الجوزي، بتصرف) (ص٣٣ - ٣٥).

ضعفَتْ، أو فضيلةٍ فاتَتْ، فيمْضي زمان الكبرِ في حسراتٍ؛ فإنْ كانت للشيخِ إفاقةٌ مِن ذنوبٍ قد سلفَتْ؛ قال: وا أسفا على ما جَنَيْتُ! وإن لم يكنْ له إفاقةٌ؛ صارَ متأسِّفاً على فواتِ ما كان يلتذُّ به.

فأمَّا مَن أنفقَ عصرَ الشبابِ في العلمِ، فإنَّه في زمنِ الشيخوخةِ يحمَدُ جنيَ ما غرَس، ويلتذُّ بتصنيفِ ما جمَع، ولا يَرَى ما يفقدُ مِن لذَّاتِ البدنِ شيئاً، بالإضافةِ إلى ما ينالُه مِن لذَّاتِ العلمِ، هذا معَ وجودِ لذَّاتِه في الطَّلبِ، الذي كانَ تأمَّلَ به إدراكَ المطلوبِ، ورُبَّما كانت تلك الأعمالُ أطيبَ مما نِيلَ منها؛ كما قالَ الشاعرُ:

أهتزُّ عندَ تمنِّي وصلِها طرباً ورُبَّ أُمْنِيَّةٍ أحلَى مِن الظَّفَرِ) [1]

قال ابنُ عقيلٍ: (إنِّي لا يحِلُّ لي أن أُضيعَ ساعةً مِن عمري، حتَّى إذا تعطَّلَ لساني عن مذاكرةٍ ومناظرةٍ، وبصري عن مطالعةٍ، أعْملتُ فكري في حالةِ راحَتِي، وأنا مستطرحٌ، فلا أنهضُ إلا وقد خطرَ لي ما أسطرُه.

وقال أيضاً: أنا أقصرُ بغايةِ جَهْدي أوقاتَ أكْلِي، حتَّى أختارَ سفَّ الكعكِ وتحسِّيَهِ بالماءِ على الخبزِ؛ لأجلِ ما بينَهما مِن تفاوتِ المضغِ، توفراً على مطالعةٍ، أو تسطيرِ فائدةٍ لم أُدْرِكْها فيه) [2].

---

(١) (صيد الخاطر، لابن الجوزي) (ص٢٣٥،٢٣٤).

(٢) (ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب) (١/١٤٥، ١٤٦).

٤- تحلَّ بالصبرِ وقوةِ التحملِ:

قال أحمدُ بنُ سليمانَ القطيعيُّ: (أضقتُ إضـــاقةً، فمضـــيتُ إلى إبراهيمَ الحربيِّ؛ لأُبثَّه ما أنا فيه.

فقال لي: لا يضِقْ صدرُك؛ فإنَّ اللهَ مِن وراءِ المعونةِ، وإنِّي أضقتُ مرةً حتى انتهَى أمْري في الإضاقةِ إلى أنْ عدِمَ عيالي قوتَهم! فقالتْ لي الزوجةُ: هبْ أنِّي أنا وإياك نصبرُ، فكيفَ نصنعُ بهاتيْنِ الصبيَّتينِ؟ فهات شيئاً مِن كتبِك حتَّى نبيعَه أو نرهنَه. فضننتُ بذلك، وشحَّتْ نفسي بالكتبِ، وقلتُ لها: اقْتَرِضي لهما شيئاً، وأنْظِريني بقيةَ اليومِ والليلةِ. وكان لي بيتٌ في دهليزِ داري فيه كُتُبي، فكنتُ أجلسُ فيه للنسخِ والنَّظرِ، فلمَّا كانَ في تلكَ الليلةِ إذا داقٌّ يدُقُّ البابَ، فقلتُ: مَن هذا؟ فقال: رجلٌ مِن الجيرانِ. فقلتُ: ادْخُلْ. فقال: أطفِئْ السِّراجَ حتَّى أدخلَ. فكببتُ على السراجِ شيئاً وقلتُ: ادْخُلْ. فدخَل وتركَ إلى جانبي شيئاً وانصرفَ، فكشفتُ عن السِّراجِ، ونظرتُ، فإذا منديلٌ له قيمةٌ، وفيه أنواعٌ مِن الطعامِ، وكاغدٌ فيه خمسُمائةِ درهمٍ، فدعوتُ الزوجةَ وقلتُ: أنبهي الصبيانَ؛ حتَّى يأكلوا. ولما كان مِن الغدِ قَضَيْنا ديناً كان علينا مِن تلك الدراهمِ، وكان وقتَ مجيءِ الحاجِّ مِن خراسانَ، فجلستُ على بابي مِن غدِ تلكَ الليلةِ، فإذا جمَّالٌ يقودُ جَمَليْنِ عليهما حِمْلان ورقاً، وهو يسألُ عن مترلِ الحربيِّ، فانتهَى إليَّ فقلتُ: أنا إبراهيمُ، فحطَّ الحِمْلين: وقال: هذان الحملانِ أنفَذَهما لك رجلٌ مِن خراسانَ. فقلتُ: مَن هو؟ فقال: قد

اسْتَحْلَفَني أن لا أقولَ مَن هو)[١].

قال سفيانُ الثوريُّ: (فتنةُ الحديثِ أشدُّ مِن فتنةِ الذهبِ والفضةِ)[٢] أي: حبُّه والافتتانُ به.

وقال الإمامُ البخاريُّ: (أفضلُ المسلمينَ رجلٌ أحيَا سنَّةً مِن سُننِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم قد أُمِيتتْ؛ فاصبِروا يا أصحابَ السُّننِ رحِمكم اللهُ، فإنَّكم أقلُّ الناسِ).

قال الخطيبُ عقِبَه: (قولُ البخاريِّ: إنَّ أصحابَ السُّننِ أقلُّ الناسِ. عنَى به الحفاظَ للحديثِ، العالِمين بطرقِه، المميِّزين لصحيحِه مِن سقيمِه، وقد صدَق رحِمه اللهُ في قولِه) وتابعَ الخطيبُ قولَه: (لأنَّك إذا اعْتبَرتَ لم تجدْ بلداً مِن بلدانِ الإسلامِ يخلو مِن فقيهٍ أو متفقِّهٍ، يرجِعُ أهلُ مصرِه إليه، ويعوِّلون فتاواهم عليه، وتجدُ الأمصارَ الكثيرةَ خاليةً مِن صاحبِ حديثٍ عارفٍ به، مجتهدٍ فيه؛ وما ذاك إلا لصعوبةِ علمِه، وعزَّتِه، وقلةِ مَن ينجبُ فيه مِن سامِعيه وكَتبتِه، وقد كان العلمُ في وقتِ البخاريِّ غضًّا، طريًّا، والارتسامُ به محبوباً شهيًّا، والدَّواعي إليه أكبرُ، والرغبةُ فيه أكثرُ، وقال هذا القولَ الذي حَكَيْناه عنه، فكيفَ نقولُ في هذا الزمانِ مع عدمِ الطالبِ، وقلةِ الراغبِ؟!)[٣]. وما ذا نقولُ نحنُ عن الحال في زماننا؟! فاللهُ المستعانُ.

---

(١) (طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى) (١/٨٧-٨٨).

(٢)(شرف أصحاب الحديث، للخطيب البغدادي) (ص١٢٠).

(٣) (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب) (١/١٦٨).

قال ابنُ عباسٍ: (ذللْتُ طالباً؛ فعززْتُ مطلوباً) [١].

وقال: (وجدتُ عامَّةَ علمِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم عندَ هذا الحيِّ مِن الأنصارِ، إنْ كنتُ لأقيلُ ببابِ أحدِهم، ولو شئتُ لأذِنَ لي، ولكنْ أبْتَغي بذلك طيبَ نفسِه) [٢].

(وقال عبدُالرحمنِ بنُ حَرْملةَ: قد شجَّني سعيدُ بنُ المسيبِ في العلمِ مرَّتينِ. وقال الأعمشُ: الحبرُ في ثيابِ صاحبِ الحديث أحسنُ مِن الخلوقِ في ثيابِ العروسِ) [٣].

وذكر عن أبي حاتمٍ أنَّه قال: (ضاقتْ بي الحالُ أيامَ طَلَبي العلمَ، فعجَزْتُ عن شراءِ البزرِ، فكنتُ أخرجُ بالليلِ إلى الدربِ الذي أنزلُه، وأرتفقُ بسراجِ الحارسِ، وكان رُبَّما ينامُ الحارسُ، فكنتُ أنوبُ عنه) [٤].

وقال رجلٌ لآخرَ: بِمَ أدْرَكْتَ العلمَ؟

قال: (طلَبْتُه فوجدْتُه بعيدَ المرامِ، لا يُصطادُ بالسِّهامِ، ولا يُرَى في المنامِ، ولا يُورثُ عن الأعمامِ، فتوسَّلْتُ إليه بافتراشِ المدرِ، واستنادِ الحجرِ، وإدمانِ السَّهرِ، وكثرةِ النظرِ، وإعمالِ الفكرِ، ومتابعةِ السفرِ، وركوبِ الخطرِ، فوجدْتُه شيئاً لا يصلحُ إلا للغرسِ، ولا يُغرسُ إلا في

---

(١) (المجالسة وجواهر العلم، لأبي بكر الدينوري) (٤/٤٣٩).

(٢) (الحث على طلب العلم، للعسكري) (ص٨٣).

(٣) (المصدر السابق) (ص٦٥).

(٤) (المصدر السابق) (ص٨٠).

النفسِ، ولا يُسقَى إلا بالدَّرسِ)[١].

وقال الحافظُ محمدُ بنُ طاهرٍ المقدسيُّ: (بُلْتُ الدَّمَ في طلبِ الحديثِ مرَّتينِ: مرَّةً ببغدادَ، ومرةً بمكَّةَ، وذلك أنِّي كنتُ أمْشِي حافياً في حرِّ الهواجرِ بهما، فلحِقني ذلك، وما ركِبْتُ دابةً قطُّ في طلبِ الحديثِ إلا مرةً، وكنتُ أحملُ كُتُبي على ظَهْري، إلى أن استوطَنْتُ البلادَ، وما سألتُ في حالِ طلبي أحداً، وكنتُ أعيشُ على ما يَأْتِيني مِن غيرِ سؤالٍ)[٢].

قال الحافظُ ابنُ القيِّمِ: (الصبرُ يُورِثُ صاحبَه درجةَ الإمامةِ، سمِعتُ شيخَ الإسلامِ ابنَ تيميةَ – قدَّس اللهُ روحَه – يقولُ: بالصبرِ واليقينِ تُنالُ الإمامةُ في الدِّينِ. ثم تلا قولَه تعالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة : ٢٤])[٣].

٥- احرصْ ... كلَّ الحرص، على العلمِ:

قال الحسنُ اللؤلؤيُّ: (غبَّرْتُ أربعينَ عاماً، ما قِلْتُ، ولا بِتُّ، ولا اتَّكأْتُ، إلا والكتابُ موضوعٌ على صدري)[٤].

وقال عليُّ بنُ الجهمِ: (إذا غَشِيَني النُّعاسُ في غيرِ وقتِ نومٍ – وبئسَ الشيءُ النومُ الفاضلُ عن الحاجةِ – تناوَلْتُ كتاباً مِن كتبِ الحِكَمِ، فأجدُ اهْتِزازي للفوائدِ، والأريحيةِ التي تعتريني عندَ الظَّفرِ ببعضِ الحاجةِ، والذي

(١)(مقامات بديع الزمان الهمذاني، بتصرف) (ص٣٠٠ – ٣٠٢).

(٢) (تاريخ دمشق، لابن عساكر) (٢٨١/٥٣).

(٣) (مدارج السالكين، لابن القيم) (١٥٤/٢).

(٤) (الحيوان، للجاحظ) (٥٢،٥٣/١).

يَغْشَى قَلبي مِن سرورِ الاستبانةِ، وعزِّ التبيينِ، أَشَدَّ إيقاظاً مِن غَيقِ الحميرِ، وهدةِ الهدمِ)[١].

قال ابنُ قيِّمِ الجوزِيَّةِ: (أما عشَّاقُ العلمِ، فأعظمُ شغفاً به، وعشقاً له مِن كلِّ عاشقٍ بمعشوقِه، وكثيرٌ منهم لا يشغلُه عنه أجملُ صورةٍ مِن البشرِ.... وحدَّثني أخو شيخِنا، عبدُالرحمنِ بنُ تيميةَ عن أبيه قال: كان الجدُّ إذا دخَل الخلاءَ يقولُ لي: اقرَأْ في هذا الكتابِ، وارفَعْ صوتَك، حتَّى أسمعَ.

وأعرِفُ مَن أصابَه مرضٌ مِن صداعٍ، وحمَّى، وكانَ الكتابُ عندَ رأسِه، فإذا وجَد إفاقةً قرأَ فيه، فإذا غُلِب وضَعه، فدخَل عليه الطبيبُ يوماً وهو كذلك، فقال: إنَّ هذا لا يحِلُّ لك، فإنَّك تعينُ على نفسِك، وتكونُ سبباً لفواتِ مطلوبِك)[٢].

قال ابنُ عساكرَ عن سليمِ بنِ أيُّوبَ الرازيِّ: (حُدِّثْتُ عنه أنَّه كان يحاسبُ نفسَه على الأنفاسِ، لا يدعُ وقتاً يمضي عليه بغيرِ فائدةٍ، إما ينسخُ أو يدرسُ أو يقرأُ... ولقد حدَّثني عنه شيخُنا أبو الفرجِ الإسفراييِنيُّ أنَّه نزَل يوماً إلى دارِه ورجَع، فقال: قد قرأْتُ جزءاً في طريقي)[٣].

قال أبو حاتمٍ الرازيُّ: (بقِيتُ بالبصرةِ في سنةِ (٢١٤) ثمانيةَ أشهرٍ، وكان في نفسي أنْ أُقيمَ سنةً، فانقطَعَتْ نَفَقتي، فجعَلْتُ أبيعُ ثيابَ بدَني

---

(١) (المحاسن والأضداد، للجاحظ) (ص٤).

(٢) (روضة المحبين، لابن القيم، بتصرف) (ص٧٠).

(٣) (تبيين كذب المفتري، لابن عساكر، بتصرف) (ص٢٦٣).

شيئاً بعدَ شيءٍ! حتى بقِيتُ بلا نفقةٍ! ومضيتُ أطوفُ معَ صديقٍ لي إلى المشيخةِ، وأسمعُ منهم إلى المساءِ فانصرَفَ رَفِيقي، ورجعتُ إلى بيتٍ خالٍ، فجعَلْتُ أشربُ الماءَ مِن الجوعِ، ثم أصبحْتُ مِن الغدِ، وغدا عليَّ رَفِيقي، فجعَلْتُ أطوفُ معه في سماعِ الحديثِ على جوعٍ شديدٍ، فانصرَف عنِّي، وانصرَفْتُ جائِعاً، فلمَّا كان مِن الغدِ، غدا عليَّ، فقال: مرَّ بنا على المشايخِ. فقلْتُ: أنا ضعيفٌ لا يُمْكِنُني. قال: ما ضعفُك؟ قلتُ: لا أكتُمُكَ أمْرِي، قد مضَى يومانِ ما طعِمْتُ فيهما)[1].

قال أحمدُ بنُ سلمةَ: (عُقِدَ لأبي الحسينِ مسلمِ بنِ الحجاجِ مجلسٌ للمذاكرةِ، فذُكِرَ له حديثٌ لم يعرِفْه، فانصرفَ إلى مترلِه، وأوْقَد السِّراجَ، وقال لمنْ في الدارِ: لا يدخلنَّ أحدٌ مِنكم هذا البيتَ، فقِيل له: أُهْدِيتْ لنا سلَّةٌ فيها تمرٌ. فقال: قدِّموها إليَّ. فقدَّموها، فكان يطلبُ الحديثَ، ويأخذُ تمرةً تمرةً، يمضُغُها، فأصبَحَ وقد فنِيَ التمرُ، ووجدَ الحديثَ)[2].

وقال الصدفيُّ: (لَّما بلَغ عبدُاللهِ بنُ المبارك دفَع إليه أبوه خمسينَ ألفَ درهمٍ، يتَّجرُ بها، فطلَب العلمَ، حتى أفقدَها، فلمَّا انصرَفَ، لقِيَه أبوه، فقال: ما جئتَ به؟ فأخرَج إليه الدَّفاترَ، فقال: هذه تِجارتي. فدخَل أبوه المترلَ، فأخرَج له أبوه ثلاثينَ ألفَ درهمٍ أُخرَى، وقال: هذه تمِّمْ بها تجارتَك. فأنفَقَها)[3].

---

(١) (تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي) (٢/٧٤).

(٢) (صيانة صحيح مسلم، لابن الصلاح) (ص٦٤).

(٣ (ترتيب المدارك، للقاضي عياض) (٣/٣٨،٣٩).

وقال عليُّ بنُ المدينيِّ: (ستةٌ كادَتْ تذهَبُ عقولُهم عندَ المذاكرةِ: يحيَى القطانُ، وعبدُالرحمنِ بنُ مهديٍّ، ووكيعٌ، وابنُ عُيَيْنَةَ، وأبو داودَ الطيالسيُّ، وعبدُالرزاقِ، مِن شدةِ شهوتِهم له. وتذاكَر وكيعٌ وعبدُالرحمنِ ليلةً في المسجدِ الحرامِ، فلم يزالا حتَّى أذَّن المؤذِّنُ أذانَ الصبحِ)[1].

قال الوزيرُ ابنُ العميدِ: (ما كنتُ أظنُّ أنَّ في الدُّنيا حلاوةً ألذَّ مِن الرئاسةِ والوزارةِ التي أنا فيها، حتى شاهدْتُ مذاكرةَ الطبرانيِّ والجعابيِّ بحضْرَتي) ثمَّ قالَ: (فوددتُ في مكاني أنَّ الوزارةَ والرئاسةَ ليتَها لم تكنْ لي، وكنتُ الطبرانيَّ، وفرِحتُ مثلَ الفرحِ الذي فرِح به الطبرانيُّ)[2].

(كان الرضي مِن أهلِ الفضلِ، والأدبِ، والعلمِ، والذكاءِ، وحدَّةِ الخاطرِ مِن صغرِه، ذكَره أبو الفتحِ بنُ جنِّي في مجموعٍ له جمَعه، وذكَر في بعضِ مجاميعِه أنَّ هذا المجموعَ سُرِقَ منه في طريقِ فارسَ، وتأوَّه عليه كثيراً، وماتَ وهو عادمٌ له، ثمَّ إنَّ هذا المجموعَ حصَل في بعضِ وقوفِ مدينةِ أصبهانَ، ولمَّا توجَّه إليها سعيدُ بنُ الدهانِ البغداديُّ، وجَد المجموعَ المذكورَ، فنقَل منه مجلداً واحداً)[3].

---

(١) (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب) (٢/٤١٢).

(٢) (المصدر السابق) (٢/٤١٣).

(٣) (إنباه الرواة، للقفطي) (٣/١١٤).

٦- تعرَّف على مرتبتك في العلم:

(قِيلَ في مراتبِ طالبِ العلمِ:

المبتدئُ: وهو يتوهمُ بحفظِه لبعضِ المتونِ، وإتقانه لبعضِ المسائلِ، أنَّه غدا في عدادِ الرَّاسخينَ، أو مَن يحقُّ لهم الفتوَى، والجسارةُ على ما ليسَ مِن حقِّه.

المتوسطُ: وهو مَن فجأَتْه كثرةُ العلومِ، والكتبِ، واطلاعُه على علمِ العلماءِ ..، فأكسَبَه ذلك تواضعاً، وانكسارَ نفسٍ.

المنْتَهِي: وهو مَن إذا سألْتَه عن حجمِ علمِه، قال لك: لا أعلمُ شيئاً.

ثم اعلمْ أن استذكارَ المرءِ لكونِ علمِه قليلاً جداً؛ يحفِّزُه لمواصلةِ المسيرِ، بقدرِ ما يتيقنُ مِن هذه الحقيقةِ)[١].

قال أبو الحسنِ الماورديُّ: (وقلَّما تجدُ بالعلمِ معجباً، وبما أدرَك مفتخراً، إلا مَن كان فيه مُقِلا مقصراً؛ لأنَّه قد يجهلُ قدرَه، ويحسبُ أنَّه نالَ بالدخولِ فيه أكثرَه، فأمَّا مَن كانَ فيه متوجهاً، ومنه مستكثراً، فهو يعلمُ مِن بُعْدِ غايتِه، والعجزِ عن إدراكِ نهايتِه، ما يصدُّه عنِ العُجْبِ به.

وقد قال الشعبيُّ: العلمُ ثلاثةُ أشبارٍ: فمَنْ نالَ شِبراً منه شمَخ بأنفِه، وظنَّ أنَّه نالَه، ومَن نالَ منه الشِّبرَ الثَّاني، صغرَتْ إليه نفسُه، وعلِم أنَّه لم يَنَلْه، وأما الشِّبرُ الثالثُ، فهيهاتَ، لا ينالُه أحدٌ أبداً)[٢].

---

(١) (أدب الدنيا والدين، للماوردي) (ص٥٩،٥٨).

(٢) (أدب الدنيا والدين، للماوردي) (ص٨١).

٧- عليك بالمداومةِ والاستمرارِ:

قال عبدُالرحمنِ بنُ مهديٍّ: (إنَّما مثلُ صاحبِ الحديثِ بمنزلةِ السِّمسارِ، إذا غابَ عن السُّوقِ خمسةَ أيامٍ تغيَّرَ بصرُه)[١].

وعندَما سُئِل الإمامُ أحمدُ: إلى متَى يكتبُ الرجلُ الحديثَ؟ قال: حتَّى يموتَ[٢].

ورأَى رجلٌ معَ الإمامِ أحمدَ محْبَرَةً، فقال له: يا أبا عبدِالله، أنتَ قدْ بلَغْتَ هذا المبلغَ وأنتَ إمامُ المسْلِمين. فقال: معِي المحبرةُ إلى المقبرةِ[٣].

(وكَثُرَ مَن يطلبُ الحديثَ في زمنِ الأعمشِ، فقيل له: يا أبا محمدٍ، ما ترَى ما أكثرَهم! قال: لا تنظُروا إلى كثرَتِهم، ثلثُهم يموتُون، وثلثُهم يلحقُون بالأعمالِ - يَعْني الوظائفَ- وثلثُهم مِن كلِّ مائةٍ يفلِحُ واحدٌ)[٤].

ذكَر الذهبيُّ في ترجمةِ الصَّفِيِّ الهنديِّ أنَّه روَى له حديثين قال: (ليسَا هما عندِي، قرأتُهما عليه، ونَفَسُه يحشرجُ في الصدرِ، فتُوُفِّيَ يومئذٍ، عفَا اللهُ عنَّا وعنه آمين)[٥].

وذكَر الدلجيُّ عن ابنِ مالكٍ شيخِ النُّحاةِ في عصرِه، أنَّه كان كثيرَ الإشغالِ (التدريس) والاشتغالِ، حتَّى أنَّه حفِظ في اليومِ الذي ماتَ فيه،

---

(١) (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب) (٢/٤١٩).

(٢) (شرف أصحاب الحديث، للخطيب) (ص٦٨).

(٣) (الآداب الشرعية، لابن مفلح) (٢/٥٨).

(٤) (الجامع، للخطيب) (رقم٩٦).

(٥) (معجم شيوخ الذهبي) (ص٥١٧).

خمسة شواهدَ[١].

وقرأَ أبو الفرجِ ابنُ الجوزيِّ في آخرِ عمرِه، وهو في (الثمـــانين)، القراءاتِ العشرَ، هو وابنُه يوسفُ، على ابنِ الباقلانيِّ.
قال الذهبيُّ مُعلِّقاً: (فانظرْ إلى هذه الهمَّةِ العاليةِ!)[٢].

٨- ارحلْ في طلبِ العلمِ:

(قال الشعبيُّ: رحَل مسروقٌ في آيةٍ إلى البصرةِ، فسألَ عن الـــذي يفسِّرُها. فأُخْبِرَ أنَّه بالشامِ، فتجَّهزَ إلى الشامِ، حتَّى سألَ عنها.

وقال: ما رأيتُ أحداً أطلبَ للعلمِ في الآفاقِ مِن مسروقٍ.
وقال سعيدُ بنُ المسيبِ: إنِّي كنتُ لأسيرُ الأيامَ والليالِيَ في طلـــبِ الحديثِ الواحدِ.

وقال أربدةُ التميميُّ: ما سمِعتُ بأرضٍ فيها علمٌ إلا أتيتُها)[٣].
قال أبو الدَّرْداءِ: (لو أعْيَتْني آيةٌ مِن كتابِ اللهِ، فلمْ أجِـــد أحـــداً يفتحُها عليَّ إلا رجلٌ ببركِ الغمادِ لرحَلْتُ إليه)[٤].

وقال أحمدُ بنُ حنبلٍ: (لم يكنْ في زمانِ ابنِ المباركِ أطلبُ للعلـــمِ منه، رحَل إلى اليمنِ، وإلى مصرَ، وإلى الشامِ، والبصرةِ، والكوفةِ، وكان

---

(١)(الفلاكة والمفلوكون، لأحمد بن علي الدلجي) (ص٧١).
(٢) (سير أعلام النبلاء) (٢١/٣٧٧).
(٣) (الحث على طلب العلم، للعسكري) (ص٦١ - ٦٢).
(٤) (فضائل القرآن، للقاسم بن سلام) (ص١٠١).

مِن رواةِ العلمِ وأهلِ ذلك، كتَب عن الصغارِ والكبارِ)[١].

٩- لا تستنكفْ عن الاستفادةِ ممنْ دونَك

قال ابنُ جماعةَ: (لا يستنكفُ أن يستفيدَ ما لا يعلمُه ممن هو دونَه مَنْصِبًا أو نَسَباً أو سِنًّا، بل يكونُ حريصاً على الفائدةِ حيثُ كانت، والحكمةُ ضالةُ المؤمنِ يلتقطُها حيثُ وجَدَها.... وكان جماعةٌ مِن السَّلفِ يستفيدون مِن طلبتِهم ما ليسَ عندَهم، قال الحميديُّ، وهو تلميذُ الشافعيِّ: صحِبْتُ الشافعيَّ مِن مكَّةَ إلى مصرَ فكنتُ أستفيدُ منه المسائلَ، وكانَ يستفيدُ منِّي الحديثَ.

وقال أحمدُ بنُ حنبلٍ: قال لنا الشافعيُّ: أنتم أعلمُ بالحديثِ منِّي، فإذا صحَّ عندَكم الحديثُ فقُولوا لنا حتَّى آخذَ به)[٢].

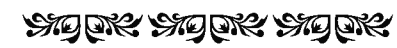

(١) (الرحلة في طلب الحديث، للخطيب البغدادي) (ص١٩٦).

(٢) (تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة) (ص٢٨، ٢٩).